في كل ليلة حكاية

٤

أول من شرى نفسه إبتغا مرضاة الله

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

أَبدى (أنوَر) رغبَتَهُ أمامَ ابن خالتِهِ (سَعيد) بزيارةِ دمشقَ ، والتَّعرُّفِ على أَهمِّ آثارِها ومعالِمِها ...

وبالفِعْلِ.. وبعدَ تناوُلِ طَعامِ الغَداءِ اصطَحَبَ (سعيدٌ) (أنورَ وأختَهُ أسماء) إلى العاصِمَةِ دِمشق.... وهناكَ تجَوَّلوا في أسواقِها القَديمةِ.. وخاصَّة سُوق الحمِيدِيَّة ، وزَاروا أهمَّ الأماكِن السِّياحِيَّة والأثرِيَّة والعمرانِيَّة ، وأُعجِبُوا كَثِيراً بالمسجِد الأُمويِّ.. ووقَفُوا عند بعضِ الأضرِحةِ.. واستَمَعوا إلى ما يَقولهُ النَّاسُ عِندَها..

وكانَ (أنوَر) يُسَجِّل في دَفتَرِهِ الصَّغيرِ بعضَ المُلاحظاتِ.. وينقُلُ ما كُتبِ هُنا وهُناكَ.. وكانَ من اللافِتِ ما سمِعَهُ من أحدِ المَشايِخِ عند

مقامِ الحُسين بن عليّ رضِيَ اللهُ عنهُما في المَسجِدِ الأُمويِّ ، بعضُ أبياتٍ مِنَ الشِّعرِ:

فحَسبِي مِنَ الدُّنيا كَفافٌ يُقيمُني
وأثــوابُ كتَّــانٍ أزُورُ بهــا قَبــرِي
وحُبِّي ذوي قُربى النَّبيِّ مُحَمَّدٍ
فما سَألنا إلا المودَّةَ في القُربى

وقُبَيلَ المَغرِبِ بقليلٍ اصطَحَبَ (سعيدٌ) أولادَ خالتِهِ (أنورَ وأسماءَ) لزيارةِ مقامِ السيِّدةِ زينبَ، وسجَّل (أنور) ما سمِعَهُ من بعضِ المُنشِدين وهو يقُول:

يــا ربِّ عبــدٌ قــد أتَــى بفِعــالِــهِ
وَبــذُلِّــهِ قــد مــدَّ كــفّ سُــؤالِــهِ
وأتَــى حبيبَــك طَــامِعــاً بنــوالِــهِ
عبــدٌ تــوسَّــلَ بــالنَّبــيِّ وآلِــهِ
فبحقِّهِـــم يـــا ربِّ لا تخـــزِهِ

وبعدَ ما أدَّوا صَلاةَ المَغرِبِ في دِمَشقَ.. غَادروها إلى الزَّبداني... ليلتَقُوا أهلَهُم هُناك...ويستَنشِقُوا الهواءَ الجَبَلِيَّ العَليلَ... ويتناولوا قَليلاً من المياهِ العذبَةِ.. ويأكُلوا بعضَ أنواعِ الفواكِه الطَّازجةِ...

وما إن وَصَلُوا إلى بيتِ (أمّ سعيد).. حتَّى انهالتْ عليهِم الأَسئلةُ من كلِّ مكانٍ..

ولكنَّ الطَّبِيبَ أنوَر.. جلسَ على كرسيٍّ قُربَ النَّافذةِ.. وراحَ يُسجِّلُ على دفترهِ الصَّغيرِ بعضَ المُلاحظاتِ التي لاحظَها في دِمشقَ...

وبعدَ أن تَناولُوا قَليلاً من المشرُوباتِ البارِدَةِ.. قالتْ (سُعاد): وما هي حِكايةُ هذه اللَّيلةِ يا خَالتِي؟!

واقترَحَ (أَبو أحمد) أن يَصْعَدُوا إلى جبلٍ

صَغيرٍ مجاورٍ للبستانِ. ليستمتِعُوا بِضَوءِ القَمَرِ.. الذي يَبدو في طَورِ البدرِ.. ويُطِلُّوا على البَساتينِ الجَميلةِ.. وهكَذا كان...

وَراحَت (أمّ أحمد) تَحكِي حكَايتَها لهذهِ اللَّيلةِ السَّاحرةِ:

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾.

حكايَتُنا لهذِهِ اللَّيلةِ عن صهرِ رسولِ اللهِ ﷺ وابن عمِّه: عليّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عنهُ..

فكما أنَّ أبا طالِب احتَضَنَ رسولَ اللهِ وهوَ يتيمٌ صَغيرٌ.. واعتنَى بهِ ورعَاهُ.. بل وفضَّلَهُ على كَثيرٍ من أولادِهِ.. وهذا من غَايةِ الإحسَانِ والإكرامِ..

لِذلكَ ما إن كَبرَ رسولُ اللهِ حتَّى احتَضَنَ ابنَ عمِّهِ علياً.. لِيردَّ الإحسانَ بشيءٍ يُماثِلُهُ أو يزيدُ عنهُ..

وهكَذا تَرعرَعَ عليّ وشبَّ في بيتِ الرَّسولِ ﷺ فكانَ يرعاهُ ويعتني بهِ ويُعلِّمُهُ الآدابَ وحُسنَ الخُلُقِ ، وكذلكَ كانت أمُّ المؤمنينَ خديجةُ رضيَ الله عنهَا.. لذلكَ كانَ عليٌّ كأنَّهُ واحدٌ من أولادِ رسولِ اللهِ..

من هنا نَفهَمُ السِّرَّ وراءَ إيمانِ عليٍّ وهو شابٌّ صَغيرٌ..

أجلْ ، لقد آمنَ بالرَّسولِ وبما جاءَهُ من عندِ اللهِ وهو لا يفهَمُ كثيراً مِن ذلك ، حتَّى إنَّه كان يقِفُ إلى جانبِ رَسولِ اللهِ وهو يُصلِّي.. فيسمعُ الآيات من القُرآنِ الكَريمِ.. ولا يفهمُ بعضَ معانِيها.. ويقلِّدُ رسولَ اللهِ في كلِّ شيءٍ.. فيسجُدُ كما يَسْجُدُ، ويَركعُ كما يَركَعُ.. ويردّد راءَهُ الكَلامَ الجَميلَ...!!

وَما آمن مَع رسولِ اللهِ ﷺ إلاَّ القَليل.. وبقيَ الأمرُ سِراً حتَّى جاءَ الأمرُ الإلهيُّ للرَّسولِ:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦].

وعندَئذ جَمَعَ النَّبيُّ ﷺ طائِفةً مِنْ أهلِ بيتهِ ، فاجتمعَ ثلاثُون ، وأكلُوا وشَربُوا ، فقالَ لهم: «من يضمَنُ عنِّي دينِي ومواعِيدي ويَكونُ مَعِي في الجنَّةِ ، ويكونُ خليفتِي في أهلِي؟».

فقالَ عليُّ بن أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنهُ: أنا يا رَسولَ اللهِ..

... وبدأَ مُسلسَلُ التَّعذيبِ.. ورَاحَ المُشرِكُونَ

يَستخدِمونَ كلَّ أساليبِ الاستهزاءِ والسُّخرِيةِ وإظهارِ العداوةِ للرَّسولِ ومن آمنَ معَهُ:

فتارةً أثاروا شُبهاتٍ حولَ القُرآنِ، وتارةً أَطلقوا الاتِّهاماتِ والإشاعاتِ، وتارةً استخفُّوا بعبادةِ المُسلمينَ..

ثُمَّ كانتِ المُقاطعةُ والحصارُ، حيثُ حاصرَ المُشركونَ الرَّسولَ ومن معهُ في شعبِ - وادي - أبي طَالب، فقاطعُوهُم تجارِياً واقتصادياً واجتمَاعياً...

وضاقَ الأمرُ كَثيراً، حتَّى لم يقدِر المُسلِمونَ على تأمينِ الطَّعامِ لأولادِهم..، والذي زادَ في المَسألةِ مرارةً أكثر وفاةُ السَّيِّدةِ خَديجة زوج رَسولِ الله.. ووفاةُ عمِّهِ أبي طَالِب.. فسُمِّي ذلك العَام عامَ الحُزنِ..!!

ويدورُ الزَّمنُ دورَتهُ.. ويتحمَّلُ عليٌّ الشَّدائِدَ

والمِحَنَ مع رسولِ اللهِ ﷺ.. حتَّى إذا ما كانتِ الهجرةُ إلى المَدينةِ المنوَّرةِ.. فاستعدَّ عليٌّ لكنَّ الرَّسولَ ﷺ كانَ يعدُّهُ لمهمَّةٍ أُخرى ، لكنَّها مهمَّةٌ صَعبةٌ وقد تُعرِّضُهُ للموتِ!

لقدْ كانَ عليٌّ أولَ من شَرى نفسهُ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ.. فنامَ على فراشِ رَسولِ اللهِ.. وغَطَّى جَسدَهُ ببُردهِ.. حتَّى إذا ما جاءَ المُشركونَ.. ونَظروا من شقِّ البَابِ فحسِبُوا عَلياً رسولَ اللهِ.. فراحُوا يرمونَهُ بالحِجَارةِ!!

وعليٌّ ثابتٌ لا يتحرَّك.. وهكَذا بقي الأمرُ حتَّى الصَّباح.. فنظرَ واحدٌ من المشرِكينَ ودقَّقَ النَّظرَ.. ثُمَّ صاحَ: ويحكُم إنَّهُ عليُّ بن أبي طَالب..

ودَخلوا عليهِ البيتَ.. وقالُوا: أينَ صاحِبُكَ؟

قالَ: لا أدْرِي ، أو رقيباً كنتُ عليه؟ أَمرتمُوه بالخروجِ فخرجَ.

فَأخذُوهُ ، فأخرجُوه إلى بيتِ اللهِ الحرامِ ، فَحبسُوه ثمَّ تركُوهُ...

وعندَها أنزلَ الله تَعالى قَوله:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

[الأنفال: ٣٠].

وتَخلَّفَ عليٌّ أكثرَ من ثلاثةِ أيَّامٍ عن موكِبِ الهجرةِ.. وذلك بهدفِ أداءِ الودائعِ والأماناتِ التي كانتْ في حَوزةِ رَسولِ اللهِ ﷺ.

فماذا كانتْ مُكافأةُ عليٍّ من رَسولِ اللهِ لقاءَ هذا المَوقفِ الفدائيِّ الرَّائعِ؟

أجلْ! كانتْ مُكافأة من نوعٍ آخر:

تقولُ كُتُبُ السِّيَرِ والتَّاريخ: لمَّا آخى النَّبيُّ بينَ أصحابِهِ من المهاجِرينَ والأَنصار فلمْ يُؤاخِ بينَ عليٍّ وبينَ أَحدٍ منهم ، فغضبَ عليٌّ وجاءَ يَسْتَفْسِرُ عن ذلك من رَسولِ اللهِ..

فكانَ جوابُ الرَّسولِ: «أما تَرضى أن تكونَ منِّي بمنزلةِ هارونَ من مُوسى ، إلاَّ أنَّه ليس بَعدي نبيٌّ.. يا عليُّ أنتَ أَخِي في الدُّنيا والآخِرَة».

في ظِلاَلِ العَهدِ المَدنيِّ

تُتابِع (أمّ أحمد) حكايتَها الرَّائعةَ ، فَتقُولُ:

وهَكذَا عاشَ عليٌّ مع رَسولِ اللهِ ﷺ ، عاشَ مَعَهُ في كلِّ الغزواتِ كجُنديٍّ وفدائيٍّ شُجاعٍ ، وعاشَ معهُ في السِّلمِ داعيةً إلى اللهِ تعالى.. وكافأهُ رَسولُ اللهِ مُكافأةً لاَ مثيلَ لها:

لقد زوَّجَهُ من ابنتهِ المُدلَّلةِ فَاطمةَ الزَّهراء.. فأنجبَتْ لهُ الحَسنَ والحُسينَ سيِّدي شَباب أَهلِ الجنَّةِ ، وأنجبتْ لهُ زينبَ وأمَّ كُلثُوم رضيَ الله تَعالى عنهُم أجمعين...

وكانتْ أُسرةً سعيدةً تعيشُ حياةَ البَساطةِ والقَناعةِ.. لكنَّها اسْتَحَقَّتْ مدحَ الله تَعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١٠].

ويدورُ الزَّمنُ دورتهُ.. ويتمدَّدُ رسولُ اللهِ ﷺ على فراشِ المَوتِ.. وعليٌّ لمْ يفارِقْهُ لَحظةً واحدةً.. لكن ما هُو العملُ أمامَ قرارِ اللهِ تَعالى؟

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

ليس لك يا عَليُّ إلا الصَّبرُ.. والتَّسليمُ

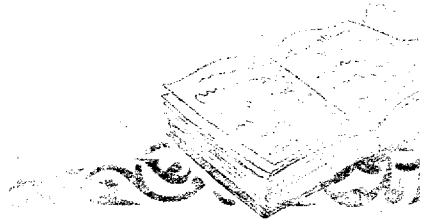

المُطلقُ للهِ وَحدهُ ، لكنَّ المُصِيبةَ أيضَاً موتُ فاطمةَ بعدَ عدّةِ أشهرٍ من انتقالِ الرَّسولِ إلى الرَّفيقِ الأَعلى..

ويلتفتُ عليٌّ إلى أولادِهِ الصِّغارِ.. وتَنهمِرُ الدُّموعُ.. لكنَّ القلبَ ينبُضُ ليتحرَّكَ اللِّسانُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُون...

المُستشارُ الأَمينُ: عليّ رضيَ اللهُ عنهُ

وهكَذا عاشَ عليٌّ في ظلالِ خلافةِ أبي بَكرٍ ثُمَّ عُمرَ ثُمَّ عُثمانَ.. ولمْ يُعرفْ عنهُ إلاَّ الدَّورُ الرَّائعُ ، فهو المُستشارُ والنَّاصِحُ ، وهو الأَمينُ والقَاضِي ، وهوَ الفَقيهُ والمفسِّرُ..

وكانَ كبارُ الصَّحابةِ يلجؤونَ إليه في حلِّ المُعضِلاتِ ، حتَّى الفاروقُ عُمَر كانَ يقُولُ: قَضيةٌ ولا أَبا حَسنٍ لَها!!

حتَّى إذا ما اسْتُشْهِدَ عُثمانُ رَضي اللهُ عنهُ..

جاءَ النَّاسُ عليَّاً ليأخذوا عليهِ البيعَةَ..

في طريقِ الشَّهادةِ!!

واستلـمَ زمـامَ الخِـلافـةِ مـدَّة (٥) خمـسِ سَنـواتٍ ، لكنَّهـا كـانـت سنـواتٍ عَصِيْبَـةً ، فالخوارجُ وقفوا ضِدَّ عليٍّ! وأميرُ الشَّامِ معاويةُ أعلنَ المطالبةَ بِدمِ عُثمان! والسيِّدةُ عائشةُ وطلحَـةُ والـزُّبيْـر خَـرجـوا بجيـشٍ مـن مكَّـةَ والمدينةِ..!!

لذلكَ كان عليٌّ ينتقلُ من معركةٍ إلى أُخرى: من مَعركةِ الجَمَلِ إلى صفِّين إلى النَّهرَوانِ إلى...

ومعَ كلِّ ذلكَ كانَ النَّاصِحَ للنَّاس.. وإنَّ الذي يطلُبُ من النَّاسِ أن يسألُوهُ عن كلِّ أمورِ العقيدةِ

والشَّـريعـةِ.. كـان يقـولُ: سَلُـونِـي قبـلَ أن تفقدُوني.. وكانَ يقفُ في النَّاسِ خَطيباً ومُعلِّماً..

وهكَذا استمرَّ عليٌّ في ذلكَ حتَّى كانتْ ليلةً رمضانيةً في سنةِ (٤٠ هـ) وراحَ عليٌّ ينادِي النَّـاسَ إلـى صَـلاةِ الفَجـرِ.. وإذا بِـواحـدٍ مـن الخَوارجِ واسمهُ (عبد الرَّحمن بن ملجَم) يَنقضُّ على الخَليفةِ وَيَطْعَنُهُ ويَضْرِبُه بالسَّيفِ على رَأسهِ ، فتسيلُ الدِّماءُ الطَّاهرةُ على اللِّحيةِ الشَّريفةِ..!!

فرضِيَ اللهُ عن الإمامِ عليّ وأرضاهُ.. وجَعلنَا من أَتباعِهِ.. وإلى حِكَايةٍ جَديدةٍ في ليلةٍ قادمةٍ..

والحمدُ لله ربِّ العَالمين